

## مناهج البحث البلاغي العربي الأصناف والمعايير

د. محمد أيت حمو(\*)

الملخص:

تعددت أصناف مناهج البحث في البلاغة العربية، ومرد ذلك إلى المعايير التي اعتمد عليها الباحثون في التصنيف، فمنهم من اعتمد على قضية ترتيب المادة البلاغية وتبويبها، فصنّف على هذا الأساس مناهج البحث البلاغيّ إلى أربعة مناهج، ومنهم من رأى في مسألة المصطلح معياراً مناسباً للتصنيف إلى جانب محددات زمنية وأخرى مكانية، ومن الدارسين من نظر في طريقة الكتابة وأسلوب التأليف الذي صاغ به المؤلف مصنّفه البلاغيّ. فما المقصود بمناهج البحث البلاغيّ؟ وما أبرز المناهج التي سلكها البحث البلاغيّ العربيّ القديم؟  
الكلمات المفتاحية: البحث البلاغي، التأليف، التصنيف، الاحتجاج، معيار التأثير، النزعة الفلسفية.

(\*) باحث / أكاديمية جهة الشرق، المغرب

## مفهوم منهج البحث البلاغي

قبل الحديث عن أصناف المناهج البلاغية عند مختلف الدارسين والمعايير التي استندوا إليها، نرى ضرورة الإشارة إلى مفهوم (منهج البحث البلاغي) الذي يُقصد به: «مجموع الطُّرُق والأساليب التي اتُّبعت من قبل البلاغيين العرب القدماء - المتقدِّمين والمتأخِّرين - للنَّظر في البلاغة العربيَّة، ودراستها. ويشمل هذا المنهج طريقتهم في التَّأليف والتَّصنيف، وفي تنظيم المادَّة البلاغية وترتيبها، كما يشمل طريقتهم في تعريف المصطلحات البلاغية، وفي تحليل أحكامهم والاحتجاج لها، والردِّ على خصومهم، والتعامل مع الشُّواهد الأدبية الشَّعرية والنثرية، وغير ذلك مما له تعلق بالجانب المنهجي»<sup>(١)</sup>. وعليه، يكون البحث البلاغي عملاً منظماً يهدف إلى الكشف عن أمور يراها الباحث في حاجةٍ إلى معرفةٍ حقيقتها وضوابطها.

ويرى بعض الباحثين أنَّ هذا المركَّب (منهج البحث البلاغي) هو الذي «يُتَّجه بالأدب إلى البحث عن معرفة الأسباب التي أدت إلى إثارة المشاعر والانفعالات في قلوب القراء والسَّامعين، وذلك لاعتماده على الخيال في توضيح الفكرة وفي الكلمات المعبرة عنها... وأن يَنشد الباحث ضالَّته في مصادرها، وأماكن وجودها، وبذل الممكن من جهد وفكر وزمن للتَّوصُّل إليها وفهمها

(١) النَّزعة الفلسفية في الفكر النَّقدي والبلاغي العربي القديم رؤية معرفية. صديقي، علي. عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٢٠، ص ٥٤.

وتحليلها»<sup>(٢)</sup>. ويسعى البحث البلاغي كذلك إلى معرفة وسائل الاستدلال وطرق الإقناع التي يبني بها المتكلم خطابه أو النَّظر في كيفية إنشاء كلامه وبنائه، ويبحث أيضاً في طرق تفسير الخطاب وتأويله.

ومن هنا، يمكن القول: إنَّ منهج البحث البلاغي يهتم بدراسة المؤلفات التي تُعنى بالبحث في طرائق إنتاج قوانين الخطاب الإنساني وشروطها من جهة، وتفسير الخطاب الإلهي والإنساني من خلال عملية الضبط والتَّعديد والتَّقنين والتَّأصيل والتَّأويل من جهة ثانية.

ولذلك تأتي تلك المؤلفات متباينة المناهج مختلفة طرائق التَّأليف، ويرجع هذا التَّعدُّد إلى الأهداف التي يسعى إليها كلُّ مصنِّف؛ فمنهم من يروم جمع المادَّة البلاغية، ومنهم من يقصد تنظيم تلك المادَّة وتبويبها، ثم يأتي بعضهم فيهدف إلى شرح ما استغلَّق على الفهم، أو يبيِّن بعض الأمور بالتَّوضيح، أو الاختصار، أو كتابة الحواشي، أو نظم المنظومات العلمية لتيسير حفظها. وهكذا تتنوع المناهج التَّأليفية للمؤلفات البلاغية بتنوع مقاصدها وأهدافها إلى أن صارت أصنافاً كثيرة. ولذلك تجد بعض الدارسين المعاصرين تحدَّثوا عن مجموعة من المناهج البلاغية التي عرفها التَّأليف البلاغي والتي «اختلفت فيها دروب السَّالكون ومناهجهم وإن اتَّحد القصد ... فتفاوتت تلك المناهج بين الدَّاتية والموضوعية وبين الأدبية

(٢) منهج البحث البلاغي، حسين فريد، عائشة دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١٩٩٧، ١، ص ١٥، وما بعدها.

والتجريدية، والكلامية والمنطقية وبين الإيجاز والإطناب... كما تنوعت بين الميل إلى التجريد والتعقيد الشديد»<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا، يمكن البحث عن بعض أصناف مناهج البحث البلاغي الآتية:

### الصنف الأول: منهج المتقدمين والمتأخرين، ومعيار التأثر بالفلسفة والمنطق

يقع لفظ المتقدمين مقابل لفظ المتأخرين<sup>(٤)</sup>، وهما لفظان يدلان، من حيث المعنى اللغوي، على تصنيف زمني. قال ابن منظور في «لسان العرب»: «التأخير: ضد التقديم. ومؤخر كل شيء، بالتشديد: خلاف مقدمه»<sup>(٥)</sup>. وكلما استعمل لفظ التأخير مصدرًا أو اسمًا فاعلاً متأخرًا فإنه

(٣) مقدمة تحقيق كتاب: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، السبكي، بهاء الدين، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ج ١، ط ١، ٢٠٠٣، بيروت، المطبعة العصرية، ص ٠٣. لعل نظرة المحقق إلى بعض المناهج التي وظفت المنطق بأنها معقدة، تنم عن نظرتة إلى الغاية من البلاغة والتي اختزلها في «غاية واحدة، هي الوقوف على وجوه جمال التعبير، ومعرفة أسرار الجمل والتراكيب». وهي نظرة اختزالية تقزّم مفهوم منهج البحث البلاغي وتختصره، وتغفل عن جوانب أخرى. انظر: مقدمة عرس الأفراح، ص ٠٣.

(٤) وردت في القرآن الكريم بعض اشتقاقات فعل (تأخر) مقترنة باشتقاقات فعل (تقدم) على سبيل التقابل بين اللفظين. قال تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٧، ٣٦) وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (الحجر، ٢٤) وقال تعالى: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح، ٠٢).

(٥) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ٤ / ١٢. مادة (أخر).

يُعرف بـضده (التقديم والمتقدم)، وهذان اللفظان استعملتا في الثقافة العربية الإسلامية من قبل بعض العلماء؛ منهم ابن خلدون الذي تحدّث عن صنفين من أصناف التأليف في علم الكلام، وذلك بالنظر إلى الطريقة المعتمدة وما تصدر عنها من مرجعيات فكرية مختلفة، فسُمي إحداهما «الطريقة الأولى»<sup>(٦)</sup> ويقصد بها طريقة المتقدمين أو «الطريقة القديمة للمتكلمين»، وهي طريقة تقع في مقابل «طريقة المتأخرين»<sup>(٧)</sup>، وذهب ابن خلدون إلى أنّ الفاصل بين الطريقتين يعود إلى توظيف المنطق واستثمار قواعده وآلياته بوصفها قانونًا ومعياريًا «يسبر به الأدلة... كما يسبر ما سواها»<sup>(٨)</sup>. وقد كان ذلك في القرن الخامس الهجري، حيث بداية ظهور طريقة المتقدمين في علم الكلام على يد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ). يقول ابن خلدون: «وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله»<sup>(٩)</sup>. هكذا فصل ابن خلدون بين طريقتين منهجيتين سلكها علماء الكلام في تأليفهم، معتمداً في ذلك على معيارين<sup>(١٠)</sup>: الأول زمني، والثاني منهجي معرفي. ولم يبق هذا التمييز بين المتقدمين والمتأخرين من المتكلمين عند

(٦) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، عبد الرحمن. تحقيق:

علي عبد الوافي، دار نهضة مصر. ط ٠٧، ٢٠١٤، ٣ / ٩٧٦.

(٧) المرجع السابق، ٣ / ٩٧٧.

(٨) المرجع السابق، ٣ / ٩٧٦.

(٩) المرجع السابق، ٣ / ٩٧٦.

(١٠) يُنظر: النزعة الفلسفية في الفكر النقدي والبلاغي

العربي القديم رؤية معرفية: صديقي، علي، عالم الكتب

الحديث، ٢٠٢٠، ص ٥٢.

ابن خلدون محصوراً في دائرة علم الكلام فحسب، بل سرى هذا التقسيم في استعمال العلوم الأخرى؛ كعلم الحديث الذي يميّز فيه بين المتقدم والمتأخر من العلماء استناداً إلى المعيار الزمني غالباً<sup>(١١)</sup>.

أمّا في مجال البلاغة العربية، فقد تحدّث بعض المؤلفين قديماً وحديثاً عن نوعين من الطرائق التي سلكها البلاغيون في تصانيفهم؛ وهي طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين<sup>(١٢)</sup>، ويُعدّ قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) صاحب كتاب «نقد الشعر» «إمام المتأخرين في النقد والبلاغة»<sup>(١٣)</sup>، ومردّد هذا إلى استعماله المقاييس المنطقية والأصول الفلسفية في البلاغة والنقد العربيين، فكان بعمله هذا سباقاً إلى هذا المنهج التأليفي الذي يمتح من الثقافة اليونانية وعلومها الحكيمية، وقد يقول قائل: إنّ قدامة لم يكن أوّل من استعمل تلك القواعد ذات الطبيعة الفلسفية، فقد سبقه غيره، فيثير في هذا السياق ذلك الكلام الذي قيل زمن طه حسين وحديثه عن كتاب «نقد النثر» المنسوب خطأ إلى

(١١) ذهب بعضهم إلى أنّ الحدّ الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين هو القرن الرابع من الهجرة، ومنهم من جعله منتصف القرن الخامس الهجري. ومن المتقدمين على سبيل المثال: ابن راهويه (٢٣٨هـ)، والبخاري (٢٥٦هـ)، ومسلم (٢٦١هـ)، وأبو داود (٢٧٥هـ)، والتّرمذي (٢٧٩هـ)، والنسائي (٣٠٣هـ)، والدارقطني (٣٨٥هـ)، والبيهقي (٤٥٨هـ)، ويعدّ البيهقي خاتمة المتقدمين. أمّا المتأخرون فنذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر: النووي (٦٧٦هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ)، وابن كثير (٧٧٤هـ)، والحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ)، وغيرهم كثير. (١٢) يُنظر. النزعة الفلسفية، صديقي، علي ص ٥٢.

(١٣) المرجع السابق، ص ٥٢.

قدامة وما بني عليه من أحكام. لكن المتعبّر عندنا هو التّأثر بالثقافة اليونانية الفلسفية والمنطقية التي بدأ مع النّشاط الفكريّ للحضارة الإسلامية في العصر العباسي، إذ افادت الخلافة العباسية من رعاياها المسيحيين الذين أجادوا اللّغة اليونانية إلى جانب السريانية، لا سيّما طبقة المثقفين الذين عملوا على التّرجمة في بادئ الأمر إلى السريانية أولاً ومن ثمّ إلى اللّغة العربية. أمّا قبل ذلك التاريخ فلا حاجة للحديث عن هذه القضية.

واستناداً إلى هذا المعيار يكون بعض المتأخرين زمنياً متقدّمين منهجياً، وقد يكون بعض المتقدمين زمنياً متأخرين منهجياً، حسب تحديد ابن خلدون، فأبو عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد الأندلسي (ت ق ٨هـ) صاحب كتاب «المعيار في نقد الأشعار»<sup>(١٤)</sup> «على سبيل التمثيل متأخر من حيث الزمن، لكن منهجه في البحث البلاغيّ يبتعد عن المقاييس المنطقية والأصول الحكيمية، وهذا ما جعله مصنفاً ضمن البلاغيين المتقدمين أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى اليمانيّ البصري (ت ٢٠٩هـ) مؤلّف كتاب «مجاز القرآن»، وعبد الله بن محمّد المعتزّ بالله (ت ٢٩٦هـ) صاحب «البديع».

(١٤) ذكر محقق كتاب «أفانين البلاغة» للرّاعب الأصفهاني أنّ كتاب «المعيار» المذكور هو في حقيقته كتاب «أفانين البلاغة» نفسه، وأنّ ناسخاً نقله لاسم مؤلّف مجهول، ووضع له عنواناً مقتبساً من بعض ألفاظ المؤلّف في المقدمة. يُنظر: أفانين البلاغة، للرّاعب الأصفهاني، تحقيق: عمر ماجد السنوي، دار أروقة، عمّان، ٢٠٢٠، ص ٣٢-٣٨.

## الصنف الثاني: منهج المتكلمين والأدباء، ومعيار التأثر بالفلسفة والمنطق

قسّم أمين الخوليّ مناهج البحث البلاغيّ العربيّ إلى مدرستين<sup>(١٥)</sup> :

أ- مدرسة المتكلمين أو المدرسة الكلاميّة، ويشير أمين الخوليّ إلى أنّ هذا الاسم اقترحه أبو هلال العسكريّ (ت ٣٩٥هـ) في كتابه «الصناعتين»<sup>(١٦)</sup>، وسمّى السيوطيّ (ت ٩١١هـ) هذه المدرسة بطريقة «العجم وأهل الفلسفة»<sup>(١٧)</sup>، وقد تميّزت هذه المدرسة بإصدار أحكام عقلية في البلاغة، إلى جانب خصائص أخرى، منها: «اقتباس المظاهر المنطقية والفلسفية، إمّا في أبحاث من هذا النوع، تنقل بتمامها إلى كتب البلاغة، وإمّا في أساليب وطرائق تتبّع وتلتزم»<sup>(١٨)</sup>، كاستعمال التعريف المنطقيّ، وآلية التجنيس، والتقسيم، والتناسب، إلى جانب الالتزام بالترتيب المنطقيّ في مباحث الكتاب وغير ذلك؛ إلا أنّ أمين الخوليّ

(١٥) فن القول. الخولي، أمين. تقديم: صلاح فضل. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٢٦.

(١٦) قال أبو هلال العسكري: «وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب». كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، العسكري، أبو هلال.. تحقيق: محمد علي الجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م. دار إحياء الكتب العربية، ص ٩. (ص ٨ طبعة الأستانة).

(١٧) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. السيوطي، جلال الدين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د. ت)، ١ / ٣٨٨.

(١٨) فن القول، الخولي، أمين. ص ١٣٢.

سجّل بعض المآخذ بشأن طريقة تأليف أصحاب هذه المدرسة، لا سيّما مسألة التّقصير والجور على المجال الأدبيّ، ويتمثّل ذلك في «الإقلال من الشّواهد الأدبيّة؛ وعدم العناية بالناحية الفنيّة في إدراك خصائص التّراكيب، واستعمال المقاييس الحكميّة»<sup>(١٩)</sup>؛ كما يظهر في الجزء الثالث من «مفتاح العلوم» للسّكّاكيّ (ت ٦٢٦هـ) الذي يُعدّ رأس هذه المدرسة.

ب- مدرسة الأدباء أو المدرسة الأدبيّة حسب اقتراح العسكريّ، أو طريقة العرب والبلغاء بتعبير السيوطيّ، وهي مدرسة تتميّز بمجموعة من الخصائص، أبرزها: «مجاناة الأحكام النظريّة والشّعور بجورها على العمل الفنّيّ؛ وهي الخصيصة التي اختلفت حالها... في أذهان متناولي البحث البلاغيّ من ذوي النزعة الأدبيّة»<sup>(٢٠)</sup>، وتعكس كتب الموازنة الأدبيّة، والشرح الأدبيّ بشكل جليّ طريقة هذه المدرسة، حيث تقتصر على المكوّن الثّقافيّ العربيّ والبلاغيّ، وتستغني عما يحوم في السّاحة العلمية من النظريات والأفكار الوافدة.

هكذا اعتمد أمين الخوليّ في دراسته مناهج البحث البلاغيّ على مسألة التّأثر بالثقافة الفلسفيّة والتّفاعل معها، ومدى انعكاس ذلك على منهجيّة التّأليف وتنظيم المادّة البلاغيّة وتبويبها، أو عدم التّأثر والابتعاد عن تلك الثقافة والالتزام بالموروث الثّقافيّ العربيّ الخالص. وبهذا المنطلق يكون

(١٩) فن القول، الخولي، أمين. ص ١٣٢.

(٢٠) المرجع السّابق، ص ١٣٤.

المعيار الذي استند إليه الخولي هو المعيار نفسه الذي تحدّثنا عنه آنفاً في الصنف الأوّل من مناهج البحث البلاغيّ، فلا يظهر الاختلاف بين الصنّفين إلا في بعض القضايا الفرعية والمصطلحات المستعملة، أمّا الجوهر أو المعنى فهو ثابت غير متغيّر.

لقي تصنيف أمين الخولي انتقاداً من قبل الباحث حمّادي صمود الذي يرى أنّ تقسيم المنهج البلاغيّ إلى قسمين: منهج أدبيّ<sup>(٢١)</sup>، ومنهج كلاميّ، هو تقسيم تعتريه عيوب كثيرة؛ منها حرص الدارسين المحدثين «على إدراج كلّ المؤلّفات البلاغيّة ضمن اتجاهين أو (مدرستين) سمّوا الأولى (المدرسة الكلاميّة)<sup>(٢٢)</sup>، ومن خصائصها «الاهتمام بالتحديد والتّعريف والتّقسيم المنطقيّ والاهتمام بجعل

---

(٢١) يشير هنا إلى كتاب: (مناهج بلاغية) لأحمد مطلوب الذي ردّد ما أورده أمين الخولي في كتابه: (فن القول). انظر: التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، صمود، حمادي.. منشورات الجامعة التّونسيّة ١٩٨١، المطبعة الرّسميّة للجمهورية التّونسيّة. ص ٤٨٠.

(٢٢) من أعلام المدرسة الكلاميّة: قدامة بن جعفر مؤلّف كتاب نقد الشّعور، وابن وهب الكاتب صاحب البرهان في وجوه البيان، عبد القاهر الجرجانيّ في كتابه دلائل الإعجاز، وفخر الدّين الرّازيّ صاحب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، والسّكاكيّ صاحب مفتاح العلوم. هذا التّصنيف لأعلام المدرستين أورده حمّادي صمود في إطار مناقشته أفكار مطلوب والخولي، إذ عده تصنيفاً غير فعّال، ولا يمكن عده إطاراً فاصلاً بين مختلف المساهمات البلاغيّة. ويحتز أيضاً من النّتائج المنهجية التي قد تنجرّ عن تبنيّه، ومن ثمّ يرى صعوبة إدراج كلّ المصنّفات في هذا الاتّجاه أو ذاك. انظر: ص ٤٧٨-٤٧٩.

التّعريف جامعاً مانعاً ثمّ استعمال أساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها واستعمال الألفاظ الفلسفيّة والمنطقيّة والإقلال من الشّواهد والأمثلة الأدبيّة<sup>(٢٣)</sup>، وسمّوا الثّانية (المدرسة الأدبيّة)<sup>(٢٤)</sup>، وهي «لا تهتمّ بالتحديد والتّقسيم اهتماماً كبيراً وإنّ جنحت إلى ذلك ففي غير تعمّق ونفاذ والتزام للتّصحيح التّام للأصول المنطقيّة فيه»<sup>(٢٥)</sup>. ويرى الباحث في هذا التّقسيم مجموعة من المثالب، منها: أن منهج البحث البلاغيّ «لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدّد بالصّبغة الغالبة على دراستهم أدبيّة كانت أو كلاميّة، وإنّما يتجاوزها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظريّة والمتطلّبات المبدئيّة التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنيّة»<sup>(٢٦)</sup>؛ إلا أنّ صمود لا ينيكر «فائدة هذا التّقسيم وربّما شرعيّته»<sup>(٢٧)</sup>، ولا يشكّ «في فعّاليته كإطار فاصل

---

(٢٣) التّفكير البلاغي عند العرب. صمود، حمادي. ص ٤٨٠.

(٢٤) المرجع السّابق، ص ٤٧٧، ومن أعلام المدرسة الأدبيّة (حسب مناقشة صمود، ص ٤٧٨): عبد الله بن المعتزّ صاحب البديع، والعسكريّ صاحب الصّناعتين، وابن رشيق صاحب العمدة، وعبد القاهر الجرجانيّ في أسرار البلاغة، وأسامة بن منقذ صاحب البديع في نقد الشّعور.

(٢٥) التّفكير البلاغي عند العرب. صمود، حمادي. ص ٤٧٨.

(٢٦) المرجع السّابق، ص ٤٨٠.

(٢٧) المرجع السّابق، ص ٤٧٩.

بين مختلف المساهمات البلاغية»<sup>(٢٨)</sup>.

وبالمقابل، اقترح حمّادي صمود تصوّرًا آخر لدراسة منهج البحث البلاغيّ وتحديده، وهو تصوّر يقوم على خمسة أمور، تتمثل في: ١. طريقة التّأليف وتنظيم الفصول والأبواب؛ إذ مرّت البلاغة العربيّة بمجموعة من المراحل التي تطوّر عبرها تنظيم المادة وتبويبها، فقد يؤلّف بلاغيّ كتابًا ثمّ يعقبه آخر بالتّصنيف والتّبويب، وذلك حال ابن الزّمكانيّ مع عبد القاهر الجرجانيّ مثلاً.

٢. الصّبغة الغالبة على الدّراسة: أدبيّة أو كلاميّة؛ أيّ طريقة العرب مقابل طريقة العجم.

٣. تدقيق المسالك للوصول إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام؛ ويقصد بها المعايير التي يضعها البلاغيّون في دراسة النّصوص الإبداعية من المنظوم والمنثور، ثمّ الحكم عليها وفقاً لتلك المعايير.

٤. استكناه المستندات النظريّة أو المتطلّبات المبدئيّة؛ أي استنباط الرّؤية التي ينطلق منها المؤلّف.

٥. القواعد التي تحدّد القيمة الفنيّة، تحليل أحكام القيمة الفنيّة والابتعاد عن الانطباعات والذوق.

نرى أنّ هذا التّصوّر الذي حدّده حمّادي صمود للمنهج البلاغيّ يكاد يشمل جميع المقومات التي يقوم عليها أيّ منهج في البحث البلاغيّ العربيّ، بوصفه يراعي دلالة الاستعمال الأوّليّ للبحث البلاغيّ، إذ كان يجمع بين المباحث البلاغية

(٢٨) المرجع السابق، ص ٤٧٩.

والنقدية قبل أن يأتي التّقسيم المحدث الذي يّفصل بين البلاغة والنّقد، فمراعاة جوانب الجودة والقبح في الكلام، فضلاً عن تحديد الصّبغة الغالبة على المؤلّف والبحث عن المرجعيّات المؤطّرة لكلّ نظريّة ومصادرها، ورصد مدى تبلورها في العمل التّأليفيّ وغيرها من العناصر العامّة للمنهج البلاغيّ التي تصف في الغالب الخطوات والمراحل التي يمرّ بها المؤلّف، أو يطبقها استناداً إلى أهداف معيّنة ومقاصد محدّدة انبثقت عن دواعٍ ذاتية وأسباب موضوعية تنمّ عن جانب غير مرئيّ يتمّ اكتشافه من خلال ذاته المعرفيّة ووعيه وإدراكه وتمثّله للمنطلقات المحدّدة سلفاً على المستويين الإجرائيّ الموضوعيّ، والروحيّ الفكريّ.

**الصّنف الثالث: منهج البلاغة العلميّة والبلاغة الدّوقيّة، ومعيّار القضايا:**

تحدّث الطّاهر بن عاشور في مقدّمة كتاب «منهاج البلغاء»<sup>(٢٩)</sup> عن ثلاثة أنواع من المذاهب والاتّجاهات أو الطوائف في تاريخ البلاغة العربيّة، وهذا التّقسيم جاء نتيجة النّظر في المنهج الذي سلكه المؤلّف في مصنّفه، وهو منهج يتميّز عن غيره بمجموعة من الخصائص والمفارقات التي يحقّ لها أن تشكّل «باباً غير باب الطائفة الأخرى، أو قبيلًا لا يمتّ بنسب إلى قبيلها»<sup>(٣٠)</sup>.

(٢٩) تقديم الطّاهر بن عاشور لكتاب: منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. ط ٣. دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان. ١٩٨٦. ص ٨.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٨.

الرّسم الذي يحدثه إلقاء حَجرة في بركة الماء، فالبلاغة بذاك المفهوم الضيق تعدّ أولى تلك الدوائر، وتليها كتب نقد الشعر، ثمّ الكتب الإنشائية؛ إلاّ أننا نرى صعوبة التّمييز بين ما جعله كتباً بلاغيّة وأخرى نقدية وإنشائية، فكتب الجاحظ (البيان والتبيين) و(الحيوان) هي مؤلّفات بلاغيّة تتضمّن مجموعة من المباحث الأصيلّة في البلاغة العربيّة، وتتضمّن عدداً من القضايا النّقدية إنّ على سبيل السرد والتّوصيف أو التّحليل والتّأصيل، وبالمقابل يحوي كتاب الحيوان قصصاً سرديةً إنشائيةً، وعليه يكون تجنيس هذين الكتابين استناداً إلى التّصنيف الذي تحدّث عنه الطاهر بن عاشور إشكالاً تعرّضه صعوبات؛ فقاتل بإنشائية الكتب يعلّل رأيه ويقوّيه، كما يعضد بأدلة قاطعة القائل ببلاغيّته ذينك المؤلّفين، ولا يتأخّر عنهما صاحب القول الثالث (نقدية الكتابين).

وإذا كان هذا الأمر في كتابين لمؤلف واحد، فإنّ الأمر سيستعصي مع مؤلّفات المكتبة البلاغيّة العربيّة الضخمة، ومن هنا ندرك جزئية صلاحية التّصنيف المقترح لدى الباحث.

**الصّنف الرّابع: منهج المعاني والبديع، ومعياري الرّزمن والمكان:**

قسّم أحمد مطلوب<sup>(٣٣)</sup> البلاغة العربيّة إلى ثلاثة مذاهب ظهرت في القرن السّادس الهجريّ وما

(٣٣) يُنظر: مقدمة كتاب: التّبيان المطلع على إعجاز القرآن. ابن الرّمكاني تحقيق: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي. مطبعة العاني. بغداد. ط. ١. ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.

ص ٧ وما بعدها.

وقد سمّي المجموعة الأولى كتباً بلاغية، والثانية مصنّفات إنشائية، وسمّي المجموعة الأخيرة نقد الشعر. ومثّل لكل مجموعة بعدد من المؤلّفات؛ فجعل كتابي عبد القاهر (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، مع القسم الثالث من (المفتاح) للسكاكي، فضلاً عن كتاب (البديع) لابن المعتز كتباً بلاغيّة. أمّا كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، و(المثل السائر) لابن الأثير، وكتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي، فقد جعلها مؤلّفات إنشائية. ووضع كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر، و(العمدة) لابن رشيق القيرواني، و(رسائل الانتقاد) لابن شرف، ثمّ كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحرّي) للآمدي، في جناح أسماه نقد الشعر.

وقسّم كلّ قسم من الأقسام الثلاثة الأنفة إلى فروع، فصنّف المؤلّفات البلاغيّة إلى أصناف وفروع «تفصيليّة جزئية: بين بلاغة الإعجاز القرآني، وبلاغة الطّبع الأدبيّ أو بين بلاغة علميّة وبلاغة ذوقية»<sup>(٣١)</sup>، وحدّد للقسم الثاني (الكتب الإنشائية) منهجين، هما: «منهج نظريّ ابتكاريّ، كالذي في المثل السائر، ومنهج تطبيقيّ التّزامي، كالذي في صبح الأعشى»<sup>(٣٢)</sup>، ووضع لكتب نقد الشعر فرعين أسماهما نقد توجيه وتأصيل، يمثّله صاحب (العمدة)، ونقد مقارنة، يمثّله كتاب (الموازنة).

واستناداً إلى هذا التّقسيم يكون الطاهر بن عاشور قد حدّد للبلاغة ثلاث دوائر تشبه دوائر

(٣١) المرجع السّابق، ص ٨.

(٣٢) المرجع السّابق، ص ٨.

بعده، هي:

أ- مذهب المشاركة: كان هذا المذهب «أميل إلى الأخذ بالمعاني والجوهر لا بالصيغة والألفاظ والبديع»<sup>(٣٤)</sup>، وكان هذا الاتجاه يسعى إلى ضبط القواعد ووضع التقسيمات والتّحديدات، وعدّ هذا الاتجاه امتداداً لمدرسة عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي اعتمد في تأليفه على المنطلقات النّحوية والعقلية التي صاغ من خلالها نظرية النّظم، واقتفى أثره العلميّ تلميذه الرّمخشريّ (ت ٥٣٨هـ) صاحب (الكشاف)، وفخر الدّين الرّازيّ (ت ٦٠٦هـ) الذي لخص كتابي عبد القاهر (الأسرار والدلائل) في مصنّفه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، ثمّ ظهر السّكّكيّ (ت ٦٢٦هـ) الذي قسّم البلاغة إلى ثلاثة أقسام: المعاني، والبديع، والمحسّنات اللفظية والمعنوية. ثم انتشر مذهب الجرجاني في الأمصار الأخرى من الدولة الإسلاميّة، فكتب ابن الزمّلكاني (ت ٦٥١هـ) في الأندلس كتابه (التبيان المطلع على إعجاز القرآن) لترتيب مادّة كتاب (الدلائل) وتبويبه.

ب- مذهب مصر والعراق والشّام: يحكّم الذّوق ويهتمّ بصور البديع واستحضار الجانب الفنّي والوجدانيّ، ويمثّل هذا الاتجاه ابن سنان الخفاجيّ (ت ٤٦٦هـ) صاحب (سرّ الفصاحة)، ويعدّ الفاتح الأوّل لهذا المذهب عند أحمد مطلوب وخديجة الحديثيّ بوصفه اهتم بـ «وضع القواعد والأصول [و] بالتحليل وتحكيم الذّوق في النّقد والموازنة»<sup>(٣٥)</sup>، ثمّ جاء بعده ضياء الدّين ابن

(٣٤) المرجع السّابق، ص ٠٧.

(٣٥) المرجع السّابق، ص ٠٨.

الأثير (ت ٦٣٧هـ) الذي ألف كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر) وغيره من الكتب<sup>(٣٦)</sup> التي ذاع صيتها في الآفاق الأدبيّة. ومن البلاغيين المعترين في هذا المذهب: أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) مصنّف كتاب (البديع في نقد الشّعريّ)، ثم ابن أبي الإصبع المصريّ (ت ٦٥٤هـ) مؤلّف كتابي (تحرير التّحبير) و(بديع القرآن).

ج- مذهب الأندلس وبلاد المغرب: يتّجه في أكثر أمره إلى مذهب المشاركة «وقد غلب عليه البديع»<sup>(٣٧)</sup>، ويمثّل هذا الاتجاه حازم القرطاجنيّ (ت ٦٨٤هـ) مؤلّف كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، وجمال الدّين محمّد بن أحمد الأندلسيّ<sup>(٣٨)</sup> في (المعيار في نقد الأشعار).

نرى أنّ هذا التّقسيم يتضمّن بعض الأحكام المجانبة للصواب، ويتجلّى ذلك في حديث الباحث عن مذهب الأندلس وبلاد المغرب الذي عده مذهباً يغلب عليه البديع وعده أيضاً مذهباً يميل إلى منهج المشاركة. فهذا الكلام يتعارض مع الوصف الذي حدّده لمذهب المشاركة الذي يميل «إلى الأخذ بالمعاني والجوهر لا بالصيغة والألفاظ

(٣٦) كفاية الطّالب في نقد كلام الشّاعر والكاتب، (المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء)، (المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء)، (الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور)، (البرهان في علم البيان)، (الاستدراك في الرّد على رسالة ابن الدّهان المسماة بالمأخذ الكندية من المعاني الطّائفة)، (الوشى المرقوم في حلّ المنظوم).

(٣٧) مقدمة أحمد مطلوب لكتاب التّبيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزمّلكاني. ص ٧ وما بعدها.

(٣٨) مجهول تاريخ وفاته.

والبديع»<sup>(٣٩)</sup>، فكيف يميل مذهب بلاد المغرب إلى مذهب المشاركة الذي لا يأخذ بالصيغة والألفاظ والبديع؟

لعلّ هذا الحكم يعود إلى الأخذ بما قيل عن المغاربة منذ زمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذي أعلن في مقدمته أنّ المشاركة «على هذا الفنّ أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم أنه كما لي في العلوم اللسانية ... وإنما اختصّ بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصّة وجعلوه من جملة علوم الأدب»<sup>(٤٠)</sup>، وهي الفكرة التي أعاد تكرارها المقرّي في بعض كتبه، فقال: «وأما ملكة العلوم النظريّة، فهي قاصرة على البلاد المشرقيّة، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط»<sup>(٤١)</sup>.

إنّ رأي أحمد مطلوب لا يختلف عن رأي ابن خلدون إلا في الصياغة والتعبير، وهو حكم يفتقد إلى التعليل، ومن المعاصرين أيضًا الذين تشبّثوا بالرأي الخلدونيّ من دون تعليل لأحكامهم:

(٣٩) مقدمة كتاب ابن الزمكاني: التبيان المطلع على إعجاز القرآن. ص ٧.

(٤٠) مقدمة ابن خلدون. ابن خلدون، عبد الرحمن. تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط ٧، ٢٠١٤، ٣ / ١١٣٧. علق محمد بنشريف على رأي ابن خلدون، قائلاً: «رأي ابن خلدون هذا لا يخلو من الإطلاق والتعميم، ويبدو أنه لا يقوم على الاستقراء الدقيق، ومما يدل على ذلك أنه لم يشر إلى منهاج البلغاء لحازم القرطاجني وهو من أرقى ما صنف في البلاغة». مقدمة تحقيق كتاب: التنبهات لابن عميرة، ص ٥.

(٤١) أزهار الرياض في أخبار عياض المقرّي، التلمساني. تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. مطبعة فضالة، ٣ / ص ٢٦.

بدوي طبانة، قال: «ولو لم يكن من ابن رشيق إلا أن يعيب الباحث المنقّب المستقلّ بالرأي والمنهج لكفاه ذلك مثبتهً ودليل عجز، وضيق أفق في البحث البياني. وهذا ما يصدّق قول من قال إنّ المغاربة -وهذا إمام من أئمتهم في البيان- كانوا عيالاً على المشاركة، وأنهم فقدوا الاستقلال، وفقدوا علم الدراية، وقنعوا بعلم الرواية والنقل عن علماء المشاركة ورواتهم ما قرؤوه»<sup>(٤٢)</sup> في كتبهم، وما نقلوه من رواياتهم»<sup>(٤٣)</sup>.

لكن حُجج طبانة تتعارض مع واقع البيان في المغرب ومنجز أعلامه الذين كانوا مبدعين أيّما إبداع في تناولهم الدرس البلاغيّ العربيّ، وما دام هذا الأمر قائماً يعسر إنكاره، فإنّ من الباحثين من عدّ هذا المجهود قد أساء إلى البلاغة، ولم يكن الجديد فيها إلا «تعقيدات شتّى مما قرؤوه في الفلسفة والمنطق. وبذلك تحجّرت قواعد البلاغة وتجمّدت ... وسرعان ما شاع فيها العقم، وعجّل به استقلال مباحثها عن الأدب، فإذا هي تصبح مجموعة من القواعد الجافة كقواعد النحو والصرف»<sup>(٤٤)</sup>.

هكذا حُصر مجهود المغاربة في البيان العربيّ

(٤٢) ورد رسم الكلمة في المرجع كما أثبتّه.

(٤٣) البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، طبانة، بدوي. دار المنارة، جدة. دار الرّفاعي، الرياض. ط ٧، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٦٥، ١٦٦.

(٤٤) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي، ضيف. دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٥، ص ٢٧٢. حكم شوقي ضيف لا يخص بلاغة المغاربة فقط، وإنما يشمل البلاغة المنطقية بالشرق والمغرب.

من قبل بعض المعاصرين بين العجز عن الإبداع في البلاغة وبين تحويل درسه إلى قواعد جافة، وعليه يكون مجهودهم متأرجحاً بين التقليد والاجترار لما قيل من قبل، وبين الدور السلبي تجاه البلاغة حين جعلوها عقيمة بعدما كانت أرضاً خصباً وفكرًا حيًا وشعورًا فياضًا.

**الصنف الخامس: المنهج التجميعي، والانطباعي، والتحليلي، والتقني المنطقي، ومعياري الزمن والقضايا:**

اعتمد علي عشري زايد في تصنيف المناهج البلاغية العربية على المعيار التاريخي والمحددات الزمنية مع مراعاة الجوانب الفنية، ولذلك صنف بعض المؤلفات في منهجين اثنين وعلل ذلك بتطور البحث البلاغي الذي «لم يأخذ دائمًا مسارًا تاريخيًا مستقيمًا منتظمًا، ولكنه كان يسير في مجموعة من الخطوات المنعرجة المتشابكة التي لا تتوازي إلا لتقاطع، ولا تلتقي إلا لتتفرق»<sup>(٤٥)</sup>. وأدرك، وهو يحاول تصنيف البحث البلاغي إلى مناهج، مجموعة من الصعوبات؛ منها وجود نوع من الغبش في المسيرة التاريخية الطويلة للبلاغة العربية، حيث تظهر صورتها ومراحل تطورها بشكل بارز، ولذلك اقتصر الباحث في دراسته على محاولة رصد «تطور التأليف البلاغي من خلال مساره العام»<sup>(٤٦)</sup> فقط من دون النظر في كل الجزئيات.

(٤٥) البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها. علي عشري زايد. مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ٥.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٦.

وعليه ميّز الباحث بين أربعة مناهج في التأليف البلاغي العربي: أولها المنهج التجميعي، ويقصد به «ذلك المنهج الذي يقوم على تجميع بعض المادة البلاغية وتصنيفها»<sup>(٤٧)</sup> وفقاً لموضوعات تشكّل مادتها باباً من أبواب الكتاب، أو تجميع أمثلة ظاهرة بلاغية من خلال تتبّع صورها في القرآن الكريم، ويكون هذا التجميع أحياناً لآراء البلاغيين السابقين وتبويبها، فلا يخرج هذا المنهج عموماً عن دائرة جمع المادة البلاغية وتبويبها. ويمثّل هذا المنهج الشريف الرضي في كتابه (تلخيص البيان في مجازات القرآن)، فضلاً عن ابن المعتز الذي «يقوم على تجميع الأمثلة البلاغية التي تندرج تحت كلّ فنّ من الفنون الثمانية عشر التي تناولها في كتابه تحت اسمي (البديع) و(محاسن الكلام)»<sup>(٤٨)</sup>. وكان يروم بعمله هدفاً نقدياً يبيّن وجود ظاهرة البديع قبل المولدين، فساق في مؤلفه مجموعة من الشواهد الدالة على الأسلوب البديعي من كلام الوحي وكلام العرب شعره ونثره. وممّن صنّفهم الباحث في هذا المنهج أيضاً: العسكري (ت ٣٩٥هـ) صاحب «الصناعتين».

أما المنهج الثاني، فهو المنهج الانطباعي «الذي يعتمد على الدّوق الخالص في التأليف البلاغي، وتتسم الأحكام الصادرة في إطاره بالعاطفية والعموم والافتقار إلى التبرير العلمي»<sup>(٤٩)</sup>، ولم يتخذ مرجعاً أو إطاراً نظرياً. وتمثّله مؤلفات

(٤٧) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٤٨) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٤٩) المرجع السابق، ص ١١٠.

الجاحظ والآمدّي.

والازدهار والذبول»<sup>(٥٣)</sup>.

وتشمل مرحلة النشأة العصرين الجاهليّ والعصر الإسلاميّ حيث شكّلت الملاحظات البيانيّة في هذه الفترة الرّمنية توجّهات مهمة في تأصيل قواعد البلاغة، «وتعدّ الأصول الأولى لقواعدهم»<sup>(٥٤)</sup>، وتشمل هذه المرحلة أيضًا العصر العبّاسيّ الأوّل حيث ظهر فيها طائفة من المتكلّمين «يُعنون بمسائل البيان والبلاغة»<sup>(٥٥)</sup>، ولاسيما من المعتزلة، وعلى رأسهم زعيم إحدى فرقهم المسماة باسمه (الجاحظيّة) نسبة إلى الجاحظ الذي تناول في بعض مصنّفاته عددًا من القضايا البلاغيّة والملاحظات البيانيّة، وهذه المرحلة هي التي وسمها عليّ عشريّ زايد بالمنهج التّجميعيّ.

أما مرحلة الدّراسات المنهجية، فهي التي تأثّر فيها الشعراء بانفتاح الثقافة العربيّة على الفلسفة اليونانيّة، فظهر المحافظ والمجدد، وانقسم الكتاب إلى فريقين سيرًا على نهج الشعراء، ثم ظهرت في ظلّ هذه التّأثيرات ثلاثة منازع في البلاغة؛ منهم من تشبّت بالمقاييس البلاغيّة الموروثة وهي مقاييس عربيّة خالصة «لا يشوبها أيّ مقياس أجنبيّ، وهم اللّغويّون»<sup>(٥٦)</sup>، مقابل المتفلسفة الذين يقيسون البلاغة «بالمقاييس اليونانيّة الخالصة»<sup>(٥٧)</sup>. ويقع الفريق الثالث موقعاً وسطاً معتدلاً، هو مذهب المتكلّمين «وفي مقدّمهم المعتزلة

وثالث هذه المناهج، هو المنهج التّحليليّ الفنّي «الذي يمزج فيه بين القاعدة والدّوق، ويزاوج بين النّظرية والتّطبيق في صورة لا يطغى فيها أحدهما على الآخر طغياناً بيّناً»<sup>(٥٠)</sup>. وكانت بداياته مع الرّمانيّ والباقلانيّ، ثم تبلور مع عبد القاهر الجرجانيّ.

أما المنهج الأخير فقد سمّاه عليّ عشريّ المنهج التّقينيّ المنطقيّ، ويتميّز بهيمنة «القانون على الحسّ الفنّيّ، ... ويتّسم هذا المنهج بإهماله للنصّ الأدبيّ كمنبع أساسيّ لاستخلاص النّظرية الأدبيّة وتطبيقها»<sup>(٥١)</sup>. وكانت بدايته مع قدامة، وتكامل مع السّكاكيّ ومدرسته.

ونرى أنّ تصنيف عليّ عشريّ زايد يُراعي التّطور الرّمانيّ الذي شمل مختلف أطوار التّأليف البلاغيّ، ويراعي خصائص كلّ مرحلة من مراحل التّطور التّاريخيّ للبلاغة العربيّة، ونرجّح إفادة عليّ عشريّ في تصنيفه من حديث شوقيّ ضيف في كتابه (البلاغة تطوّر وتاريخ) والذي سعى إلى غاية أساسية تتمثّل في دراسة البلاغة العربيّة دراسة منتظمة، «بحيث ترتّب حياتها على منازل التّاريخ وبعيداً تتضح معالم تطوّرهما في كلّ منزلة من دورة زمنيّة إلى دورة ومن جيل إلى جيل»<sup>(٥٢)</sup> فحصر المراحل التّاريخيّة العامّة للبلاغة العربيّة في أربعة أطوار أو مراحل، هي: «النشأة والنمو

(٥٣) المرجع السابق، ص ٥.

(٥٤) المرجع السابق، ص ١٩.

(٥٥) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٥٦) المرجع السابق، ص ٦٥، ٦٦.

(٥٧) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥٠) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٥١) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٥٢) البلاغة تطوّر وتاريخ، ضيف، شوقيّ. ص ٥.

المرحلة الرَّابِعة، مرحلة التَّعْقِيد والجمود: تحوَّلت البلاغة العربيَّة في هذه المرحلة إلى قواعد جافَّة وجامدة<sup>(٦١)</sup>، و«كان من أهمِّ ما هيأ لهذا الجمود أنَّ الأدب نفسه كان قد سرى فيه جمود شديد»، وهذه الظَّاهرة أخذت مساراً لها بين أصحاب البلاغة إذ لم تعد مباحثهم تعرف الإبداع والتجديد أو الابتكار، بل اقتصر عملهم على تلخيص ما كُتب أو شرحه، ويحتاج الشرح أحياناً إلى بيان الغموض وعسر بعض الجوانب فيأتي من بعده بالحواشي والشرح على الشرح الأول.

و«قلَّما أضافوا جديداً إلا تعقيدات شتى مما قرؤوه في الفلسفة والمنطق»<sup>(٦٢)</sup>، وهكذا صارت البلاغة في نظر شوقي ضيف جامدة متحجِّرة نضب ماء حياتها. وكان الفخر الرَّازي (ت ٦٠٦هـ) صاحب كتاب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) أول من عمد إلى عمل التلخيص، إذ قصد إجمال الدلائل والأسرار للجرجاني واختصارهما، ثم استمرت هذه المرحلة إلى العصر الحديث، وتعلقت أغلبها بالقسم الثالث من (مفتاح العلوم) للسَّكَّاكي (ت ٦٢٦هـ)، وشروح الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، هما: (تلخيص المفتاح)، و(الإيضاح في علوم البلاغة)<sup>(٦٣)</sup>، وهذه المؤلفات هي التي وصف

(٦١) البلاغة تطور وتاريخ، ضيف، شوقي، ص ٢٧٢.

(٦٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٦٣) كتاب (الايضاح) وهو شرح لكتاب التلخيص. وعرف هذا الكتاب (التلخيص) شروحا أخرى وهي: (مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح) للخطيب القزويني، و(مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح) لابن يعقوب المغربي، و(عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح) لبهاء الدين السبكي. وفي عصرنا كتب

من أمثال الجاحظ<sup>(٥٨)</sup>، وهؤلاء كان لهم قبول أكثر من المذهبين الآخرين المتنازعين؛ إلا أنَّ هذا النزاع بينهما أدَّى إلى «نشاط بلاغي خصب»<sup>(٥٩)</sup>، فظهرت مجموعة من المؤلفات التي يدافع فيها كلُّ مصنّف عن رأيه ومذهبه، فكان اللغويون أمثال ثعلب صاحب كتاب (قواعد الشعر)، وابن المعتز مؤلّف كتاب (البدیع) الذي تناول فيه المباحث التي كانت مثار جدل ونقاش بين المذاهب يومئذٍ، وهذه المرحلة هي التي وصف علي عشري منهجها بالمنهج الانطباعي.

المرحلة الثالثة هي مرحلة الازدهار. يرى شوقي ضيف أنَّ هذه المرحلة افادت من مثيلتيها السابقتين، فقام العلماء بتطوير البلاغة والتوصل إلى نظريّات كبرى؛ كنظرية المعاني التي ألف فيها الجرجاني كتابه (دلائل الإعجاز)، ونظرية البيان التي أرسى دعائمها في مصنّفه الثاني (أسرار البلاغة). فهذه الأعمال والمباحث التي تحدّث عنها الجرجاني «سبقه إليها البلاغيون بالبحث، ولكنهم لم يحزروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها»<sup>(٦٠)</sup>، ثم جاء بعده الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) صاحب كتاب (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فدرس النظريّتين السالفتين دراسةً تطبيقية على سور القرآن الكريم، وتمثّل هذه المرحلة وفقاً لتصنيف علي عشري المنهج التحليلي.

(٥٨) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥٩) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٦٠) المرجع السابق، ص ١٩٠.

علي عشري منهج مؤلفيها بالتقني المنطقي.  
**الصنف السادس: المنهج العلمي، ومعياري  
النزعة الفلسفية:**

استعمل أمجد الطرابلسي في كلمته التي  
استهل بها كتاب (المنزعة البديع) مجموعة من  
المصطلحات لوصف طريقة ما أو منهج معين من  
التأليف، وذلك بالنظر إلى خصائصه ومميزاته؛  
واقصر حديثه عن التأليف البلاغي بالمغرب، فقد  
وصفه بأنه «مدرسة بلاغية عربية مغربية»<sup>(٦٤)</sup>،  
أو «مدرسة»<sup>(٦٥)</sup>، وعدّد «أشهر أعلام هذه  
المدرسة»<sup>(٦٦)</sup>، وهم ثلاثة: حازم القرطاجني، ابن  
البناء المراكشي، السجلماسي. وسار على هذا النهج  
علال الغازي الذي استعمل مصطلح (مدرسة)  
ثم وصفها بأوصاف إضافية، فقال: «المدرسة  
المغربية الفلسفية»<sup>(٦٧)</sup>، «المدرسة الفلسفية  
المغربية»<sup>(٦٨)</sup>.

أحمد محمد الحجار مؤلفا سماه (الإفصاح عما تضمنه  
الإيضاح من مباحث البيان) يوضح فيه القضايا البلاغية  
الواردة في كتاب (الإيضاح) للقزويني، وذلك لما رأى طلبة  
البلاغة بالأزهر قد بعدت أفهامهم عن استيعاب الإيضاح  
بيسر، وبعد تباعد الزمن وتغيير الأحوال.

(٦٤) المنزعة البديع في تجنيس أساليب البديع. السجلماسي،  
أبو محمد القاسم. تحقيق: علال الغازي. مكتبة المعارف،  
الرباط، ط١، ١٤٠١ / ١٩٨٠، ص ١٢.

(٦٥) المرجع السابق، ص ١٢.

(٦٦) المرجع السابق، ص ١٣.

(٦٧) المنزعة، السجلماسي. ص ٤٣.

(٦٨) المرجع السابق، ص ٤٢. واستعمل حيناً اسم  
(المدرسة) من دون أي صفة مضافة. انظر: المنزعة،  
ص ٤٣.

وتعددت الأوصاف التي أطلقت على هذا النوع  
من التأليف البلاغي الذي يعمد إلى توظيف الآليات  
المنطقية والفلسفية والرياضية التجريدية،  
ف قيل إنه منزعة التقنين والتقييد بمقتضى  
المنطق والفلسفة<sup>(٦٩)</sup>، وقيل أيضاً إنه مذهب  
التعليل والتجريد والتقسيم والتعريف والتفريع  
والتشعب<sup>(٧٠)</sup>، ووصفه بعضهم بأنه منهج إقامة  
البلاغة على طابعها العلمي<sup>(٧١)</sup>، وسمّى هذا النوع  
من التأليف (مدرسة العلماء)<sup>(٧٢)</sup> وجعل على  
رأسها السكاكي.

ومن هنا، يأتي عنوان هذه الفقرة التي وصفت  
هذا المنهج البلاغي بالعلمي والذي يمكن أن يقابله  
المنهج الأدبي، لكن الحديث عن المنهج الأدبي، في  
نظري، لا يعني إلغاء العلمية، بل هو وصف عام  
للتمييز بين تلك الأصناف من الدراسات البلاغية  
التي استعملت الآليات المنطقية بشكل يتأرجح  
بين الامتداد من مقدّمة الكتاب إلى منتهاه، وبين  
مؤلفات تستعين بالمنطق في بعض المباحث  
والقضايا، وتظهر فيها النزعة الفلسفية إن على  
مستوى البناء أو المضمون.

(٦٩) الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني.  
محمد عباس. دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩.

(٧٠) تاريخ البلاغة العربية. عتيق، عبد العزيز. دار  
النّهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠.

(٧١) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء. الربيعي، حامد  
صالح خلف. جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦. ص  
٤٢٠.

(٧٢) المرجع السابق، ص ٤١٦.

## خاتمة:

نخلص ممّا سبق إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها في الآتي:

١. إنّ تصوّر منهج البحث البلاغيّ يختلف من باحث إلى آخر، وذلك وفقاً للهدف الذي يتوخّاه؛ ويختلف أيضاً من مرحلة زمنية إلى أخرى وفقاً للقضايا النقدية والبلاغية التي تثار في عصر دون غيره، وبحسب تقدّم العلوم اللغوية والإنسانية وما تفرضه من مواكبة على مستوى تطوّر المناهج. ولذا، فإنّه لا يوجد منهج يعدّ معياراً يجب التّقيّد به والاحتكام إليه، وذلك في كلّ المراحل التي مرّ بها التّأليف البلاغيّ، بل إنّه من الجور أن نقيس مؤلّفات البلاغة القديمة بمقياس المناهج الحديثة، فلعلّ عصر طبيعته وخصوصيّته ومنهجه.

٢. هناك نوعٌ من التّدخل بين التّصنيفات السابقة لمناهج البحث البلاغيّ على مستوى المعايير المعتمّدة في التّقسيم، وذلك يؤدّي إلى:

أ- صعوبة الحسم في تصنيف بعض المؤلّفات البلاغية التي اقترحها الباحث الواحد وبالأحرى عند بعضهم أو أغلبهم، فتجده يتحدّث عن كتاب واحد ينتمي إلى هذا المنهج أو تلك المدرسة، وينتمي في الآن نفسه إلى منهج آخر، وتجد أيضاً التّدخل في تصنيف بعض المؤلّفين الذين يمزجون بين نوعين من المناهج المقترحة.

ب- نلاحظ عدم وجود التّنسيق والتّعاون على مستوى البحث في هذا الموضوع بين الدّارسين المحدثين، ولذلك بقيت تلك المحاولات فردية تقوم على اجتهاد شخصيّ.

٣. أرى أنّه من الصّعوبة الحديث عن المناهج

البلاغية خارج تحقيق مخطوطات الموروث البلاغيّ العربيّ ودراساتها.

٤. نأمل أن تتوحّد الجهود العلميّة والأكاديميّة على صعيد الكليات والجامعات العربيّة والمعاهد العليا لتنسيق الأعمال والمشاريع العلميّة وتوحيد الرّؤى في هذا الشّأن، وهو ما سيمكن الدّرس البلاغيّ العربيّ من تطويره وفتح آفاق البحث فيه.

## مصادر الدّراسة ومراجعها

- الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجانيّ. عبّاس، محمّد. دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩.

- البلاغة العربيّة تاريخها مصادرها مناهجها. عليّ عشريّ زايد. مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

- البلاغة تطوّر وتاريخ، شوقي، ضيف. دار المعارف، القاهرة، ط ١٤، ١٩٦٥.

- تاريخ البلاغة العربيّة. عتيق، عبد العزيز. دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٠.

- التّبيان المطلق على إعجاز القرآن، ابن الزّمكاني، كمال الدّين عبد الواحد. تحقيق: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.

- التّبيان المطلق على إعجاز القرآن، ابن الزّمكاني، كمال الدّين عبد الواحد. تحقيق: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.

- التّفكير البلاغيّ عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السّادس. صمود، حمادي. منشورات الجامعة التّونسية ١٩٨١، المطبعة الرّسمية للجمهورية التّونسية.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. السيوطي، جلال الدّين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، (د. ت).

- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. السبكي، بهاء

- الدّين. تحقيق: عبد الحميد هندواوي، ط ١، بيروت. المطبعة العصرية، ٢٠٠٣.
- فن القول. الخولي، أمين. تقديم: صلاح فضل. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٦.
- كتاب الصّناعتين الكتابة والشعر. العسكري، أبو هلال. تحقيق: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ١، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- لسان العرب، ابن منظور، الأفرريقي. دار صادر، بيروت، ج ٤.
- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء. الربيعي، حامد صالح خلف. جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦.
- مقدمة ابن خلدون. ابن خلدون، عبد الرّحمن. تحقيق: علي عبد الوافي، دار نهضة مصر. ط ٧، ٢٠١٤، ج ٣.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. السجلماسي، أبو محمد القاسم. تحقيق: علال الغازي. مكتبة المعارف، الرّباط، ط ١، ١٤٠١ / ١٩٨٠.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. تقديم: الطاهر بن عاشور. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. ط ٣. دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان. ١٩٨٦.
- منهج البحث البلاغيّ. حسين فريد، عائشة. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧.
- النّزعة الفلسفية في الفكر النّقدي والبلاغيّ العربيّ القديم رؤية معرفية. صديقي، علي. عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٢٠.